مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 23 العدد: 2 السّنة: الثّلاثيّ الثّانيّ 2021 ص 71 - 84

امتزاج الأجناس البشريّة في عهد المرابطين والتجاوب بينها بين التأثير والتأثر

(The mixing of human races in the Almoravid era and their response between influence and impact)

بن عدلة شهرزاد*

تاريخ الاستلام: 29- 07- 2019 / تاريخ القبــول: 21- 07- 2020

التعريف الرقمي للمقال: DOI 10.33705/0114-023-002-006

ملخّص: إنّ المتتبّع للتّركيبة البشريّة للمجتمع المرابطي في الثّلث الأوّل من القرن الخامس الهجري، بعدوتي المغرب والأندلس يجدها كشكولا من الأجناس البشريّة مختلفة الدّين والعرق واللّغة انضوت تحت لواء المرابطين"، وقد تجلّت خريطة سكّان المغرب والأندلس إبّان الحقبة المرابطيّة في العنصر البربريّ الذّي شكّل معظم حواضر المغرب الأقصى، وبواديه على الخصوص، ثم يعقب العنصر العربي الذّي اتّخذ من المدن مستقرّا له كما نجد أقلّيات فكيف انضوت هذه الأجناس المختلفة تحت راية المرابطين وكيف استطاعوا التّعايش رغم اختلاف النّحل، وتعدّد الالسّن؟

كلمات مفتاحيّة: المرابطون؛ أجناس؛ طبقات؛ تآلف؛ اختلاف.

* ج. أبي بكر بلقايد، الجزائر، البريد الإلكتروني: benadlachahrazed@gmail.com (المؤلّف المرسل)

Abstract: The observer of the human composition of the Almoravid community in the first third of the fifth century AH finds it as a shackle of the different races of religion, race and language. "The map of the population of MAGHREB and Andalusia in the Almoravid era was evident in the Berber element, And its poles in particular, and then follow the Arab element, which was taken from the cities stable as we find minorities, how to join these different races under the banner Almoravid, and how they managed to coexist despite different bees, and multi-tongues?

Keywords: Almoravids; races; layers; coexistence; variation.

1. مقدّمة: شهد المغرب الأقصى حركة دينيّة في الثّلث الأوّل من القرن الخامس الهجري مثّلها المرابطون"، بعدوتي المغرب والأندلس، فأقاموا حضارة ولمع نجمهم في عدّة إنجازات لعلّ أبرزها "معركة الزّلاّقة" التّي أسهمت في شيوع خبرهم وإرساء دعائمهم بالمجال المتوسّطي والمتتبّع للتّركيبة البشريّة للمجتمع المرابطي يجدها كشكولا من الأجناس البشريّة مختلفة الدّين والعرق واللّغة انضوت تحت لواء المرابطين"، وقد تجلّت خريطة سكّان المغرب والأندلس إبّان الحقبة المرابطيّة في العنصر البربريّ الذّي شكّل معظم حواضر المغرب الأقصى، وبواديه على الخصوص، ثم يعقب العنصر العربي الذّي اتّخذ من المدن مستقرّا له كما نجد أقلّيات من الصّقالبة والرّوم والعنصر السّوداني والأتراك الغرّ وأهل الذّمّة من اليهود والنّصارى؛ فكيف انضوت هذه الأجناس المختلفة تحت راية المرابطين، وكيف استطاعوا التّعايش بينهم رغم اختلاف النّحل، وتعدّد الالسّن؟، الهدف من البحث معرفة مدى تآلف وتخالف الفئات المرابطيّة في ظلّ المرابطين، وهل انعكس ذلك الاختلاف على موازين القوى في الدّولة؟ أمّا المنهج المتبّع في البحث فتاريخي مناسب لطبيعة الموضوع.

1-2. التّركيب البشري للمرابطين:

2-1. البربر: شكّل عنصر البربر الغالبيّة العظمى من السّكّان، ففيهم نشأت الدّولة وفي حجرهم أينعت وأزهرت يحدّد ابن خلدون النّسابة قائلا: "وأمّا إلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضيّة فقد اختلف النّسّابون في ذلك اختلافا كثيرا وبحثوا فيه طويلا فقال بعضهم إنّهم من ولد إبراهيم عليه السّلام.. وقال آخرون: البربر يمنيّون (خلدون ع، 2000م -1421هـ).

أمّا "ابن حزم الأندلسي" فيذكر أصل نسبهم قائلا: " قال قوم أنّهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السّلام، وادّعت طوائف نسبهم إلى حميَر، وبعضهم إلى برين قيس بن عيلان " (الأندلسي، ط5، دت، دار المعارف مصر).

إنّ شعوب البربر على حدّ تعبير "ابن خلدون" انقسموا إلى البتروالبرانس: " وأمّا شعوب هذا الجيل وبطونهم، فإنّ علماء النّسب متّفقون على أنّهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس وماذغيس، ويلقب ماذغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البترويقال لشعوب برنس البرانس وهما معا ابن برنس" (خلدون ع.، 2000م -1421هـ).

ذهب "غوتيه" إلى تفسير هذا التّصنيف انطلاقا من نمط العيش فالبرانس في نظرهم جبليوّن مستقرّون والبتر رحّالة (FELIX-، 1973)، في حين فسّر آخرون المعنى لغويا كـ"ويليام مارسيه" الذّي قسّم البربر إلى طائفتيْن انطلاقا من اسم اللّباس أي البرنس الطّويل المخروطي، والبرنس القصير المبتور (زغلول، 1979م) وعموما رغم تضارب آراء الباحثين إلى أنّ البرانس والبتر في عصر المرابطين كانوا قد استقرّوا في أرض المغرب الأقصى- عامّة في المناطق السّاحليّة أو الجبليّة الممتدّة من على طول البحر، وعاشوا حياة الاستقرار وشدّوا وثيقا للأرض والزّراعة، وصفهم "ابن خلدون" في كتاب العبر (خلدون ع.، 2000م - 1421هـ، صفحة 179) أنّهم أوفر القبائل عددا، أمّا أغلب البترفهم بدو رحل نزلوا بسلسلة الأوديّة الرّعويّة وانتشروا في أقاليم النّخيل حسب فصول السّنة بينما أقام بعضهم في القرى الصّحراويّة، يمتازون بروحهم القتاليّة العاليّة وامتداد قبائلهم عبر مناطق كبيرة بين المغرب الأقصى والأندلس (منصور، 1968).

2-2: القبائل الصّنهاجيّة:

أ-صنهاجة: من أبرز سكّان المغرب الأقصى-في العصر المرابطي قامت الدّولة بسواعد أبنائها؛ وفي هذا المضمار يشير "ابن خلدون" قائلا: " هذا القبيل من أوفر قبائل البربر وهي أكثر

أهل العرب بهذا العهد وما قبله لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتّى لقد زعم كثير من النّاس أنّهم الثّلث من أمم البربر" (خلدون ع، 2000م – 1421هـ).

نُسب أصل "صنهاجة" في أغلب الآراء إلى قبيلة "حميَر" وهو ما أشار إليه "ابن عذارى" عن الهمذاني في كتابه "الإكليل": "أنّ صنهاجة من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير" (عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980م)، وقد فخر المرابطون بهذا النّسب الطّيب كقول أبي محمّد بن حامد الكاتب:

قَوْمٌ لَهُمْ دَرْكُ العُلاَ مِنْ حِمْيَرَ وإنْ انْتَمَوْا صِنْهَاجَةَ فهُمْ هُمُ
لمّا حَوَوْا إحْرَازَكُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلَثَّمُوا

(عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، 1980م)

ويوافق هذا الرّأي صاحب الحلل الموشيّة؛ إذ يقول: "إنّما تبربرت السّنتهم لمجاورتهم البربر ومكوثهم معهم ولمصاهرتهم إيّاهم (مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة 1979م) (عذارى، ملحق1)" فظلّ الصّنهاجيون حتى العصر المرابطي أهمّ عنصر من عناصر السّكان في المغرب الأقصى-إذ لا يكاد قطر من أقطار يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتّى زعم النّاس أنّهم الثّلث من أمم البربر (خلدون ع، 2000م –1421هـ).

لقد ضمّت صنهاجة مجموعة من القبائل بلغ عددها السّبعين قبيلة (زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، 1843م)؛

ومن هذه القبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة ومسراتة ومنداسة (خلدون ع 2000م – 1421هـ) وبما أنّنا بصدد دراسة عصر المرابطين فلاغرو من الحديث عن بعض القبائل التّي مثّلت عصب المرابطين وكبداية ندرج:

أ- قبيلة لمتونة: التّي حازت المكانة المرموقة بين القبائل الصّنهاجيّة، فكانت لها الزّعامة والسّيطرة على غيرها من القبائل (مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة 1979م) - خاصّة أن الزّعيم الرّوحي للمرابطين "الشّيخ عبد الله بن ياسين اللّمتوني"، تفرّع منها، افتكّت الزّعامة من قبيلة جدالة فتمكّنت في هذا العهد من السّيطرة على المغرب الأقصى-والأندلس بزعامة عائلة "أبي تاشفين" حتّى انهيار الدّولة المرابطيّة (حسن

1980م)، تموقعت هذه القبيلة على حدّ تعبير الدّكتور حسن أحمد محمود: "امتدّت من منطقة تلى، منطقة لمطة وجزولة وتمتد من وادي نون على المحيط الأطلسي-حتّى رأس بوجادور الحاليّة وإلى الشّرق من وادي نون تقع مدينة أزكي على مسيرة سبعة أيام من وادي نون، وهي حصن لمتونة ومعقلها ويبدو أنّ هذه القبيلة توغّلت في الصّحراء شرقا حتّى تدرك الطّريق الموصل بين غانة وسجلماسة (محمود، قيام دولة المرابطين، 1959م)، ولاغرو أنّ هذا الزّحف والهيمنة مكنتهم من التّغلغل في المغرب، وقد امتهن اللّمتونيّون في أغلبهم الرّعي فعاشوا على لحوم الأغنام وألبانها حسب ما قاله صاحب الاستبصار: "ومن هذا الجبل يدخل إلى "لمتونة"، وهم من "صنهاجة" وأكثر "لمتونة" إنّما هم رحّالة، ولا يستقرّ بهم موضع ولا يعرفون الحرث ولا الزّرع ولا الخبز وإنّما لهم الأغنام الكثيرة فيعيشون من لبنها (مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، 1958م)، حتى عرف أمير المسلمين "يوسف ابن تاشفين" بنشأته البدويّة لباسه الصّوف، وطعامه خبز الشّعير ولحوم الإبل وألبانها (زرع الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس 1843م) (الخليفة ط1 2004م)، فلمّا تمكّنوا من بلوغ أرقى المناصب في دولة المرابطين، شاركوا في الحياة الاجتماعيّة، وتوسّعت أنشطتهم في ميادين الزّراعة والصّناعة والتّجارة (محمود قيام دولة المرابطين، د. ت)، وخاضوا غمار الأنشطة العسكريّة لإرساء دعائم الدّولة المرابطيّة في عدوتي المغرب والأندلس فلمع نجم كثير من القوّاد العسكريّين ونوّاب الأمراء والولاة (حسن، 1980م) أمثال: عمر بن سليمان، و"سير بن أبي بكر" و"داوود بن عائشة" و"تميم ابن يوسف بن تاشفين" (زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، 1843م).

ب-جدالة: هي إحدى قبائل "صنهاجة" لا تختلف عن قبيلة "لمتونة" في كون أبنائها رحّل ينتجعون المراعي ويقيمون في الصّحراء (مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة، 1979م) تمتدّ مضاربهم حتّى نهر السّنغال، وبرز دور جدالة في المرحلة الأولى من الدّعوة المرابطيّة حيث قام "يحي بن إبراهيم الجدالي" باصطحاب "عبد الله بن ياسين" إلى قبائل الصّحراء لتعليمهم شئون دينهم (سالم ح. 1999م) وانتقلت الزّعامة إلى اللّمتونيّين وقد حافظت قبيلة "جدالة" على مكانتها المرموقة ضمن المجتمع المرابطي ونال بعض أفرادها حظوة المناصب العليا في هرم السّلطة وخاصّة في الجهاد (حسن، 1980م).

ج-لمطة: تعدّ من القبائل الصّنهاجيّة الّتي تحتلّ المنطقة الممتدّة من جبال "درن" حتّى وادي النّول القريب من المحيط الأطلسي (حوقل، 1979م)، وسمّيت مدينة "نول" باسمها لأنّ قبيلة "لمطة" يسكنونها (الحميري، 1974م)، وحقّا عدّت القبائل السّالفة الذّكر عماد قوّة المرابطين وزحفهم من الجنوب وانطلاقهم صوب الشّمال واندمجت مع القبائل المقيمة بالمغرب الأقصى، أهمّها قبائل "مكناسة" و"مغراوة" و"بني يفرن"؛ لقد هاجرت هذه القبائل الصّنهاجيّة إلى "أغمات" تحت راية المرابطين ولمّا ضاقت الأرض بما رحبت قاموا بتأسيس مدينة "مراكش" لتمثّل عاصمة المرابطين (الزّهري دت)، وعُرف المغرب في تلك الحقبة تعميرا جديدا امتصّ موجة القبائل وغرس ثقافة الاستقرار في المدن يشوبها البناء والتّشييد (عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980م) (الأندلسي، ط5، دت، دار المعارف مصر) وشمل التّعمير مدنا كثيرة مثل: "فاس" و"مكناسة" و"كسلا" والقصر (الإدريسي، 2002م) و"طنجة" و"ورغة" وممّا سبق يظهر جليّا أنّ صنهاجة شكّلت أهمّ عناصر سكّان المغرب وظلّت توطّد كيانها خلال فترة المرابطين في الشّمال لتشهد جوّ الاستقرار والتّشييد بدل التّنقّل بين الفينة والأخرى بين أنحاء الجنوب بحثا عن سبل العيش الذّي كان مقتصرا على الرّعي وتربيّة المواشي.

2-القبائل الزّناتيّة:

زناتة: هم فرع من البربر "البتر" تعود أصولهم حسب النّسابة إلى كنعان بن حام من أولاد جانا بن يحبى بن صولات بن مازيغ (الأندلسي، ط5، دت، دار المعارف مصر)، ومن أشهر قبائل "زناتة": "بنومغراوة" الذّين يعدّون أوسع بطون زناتة وأشدّها بأسا وعليّة وأمّا "بنو يفرن" فهم أكثر القبائل الزّناتيّة شوكة (خلدون ع. 2000م-1421هـ) يضاف إليهم بنو وتاجن وبنو يلوما ...وبنوسنوس (حوقل 1979م) وقبائل مكناسة وجراوة وبنو توجين ومطماطة ومطغرة وصنيدة ومديونة ونفزاوة ولواتة وبنو راشد (الإدريسي-2002م)، لقد ذكر "ابن خلدون" أنّ زناتة قد استوطنت بلاد المغرب منذ عهود غابرة، وهي تضاهي القبائل العربيّة في اتّخاذ الخيام سكنا والإبل والخيل مركبا لها قال: "هذا الجيل في المغرب قديم العهد معروف العين والأثر وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتّخاذ الإبل وركوب الخيل والتّغلّب في الأرض وإيلاف الرّحلتين" (خلدون ع. 2000م-1421هـ). ويرجع نسب "زناتة" حسب رأي الجغرافي "الإدريسي" إلى أصول عربيّة تبربروا بالمجاورة: "

زناتة في أوّل نسبهم عرب صرح وإنّما تبربروا بالمجاورة والمحالفة للبربر من المصامید "أمّا الخاصّيّة التّي تميّز "زناتة" عن غيرها من القبائل الأخرى تتجلّى في اعتمادها الدّائم على التّنقّل والتّرحال (الإدريسي 2002م) وتعدّ أكثر القبائل البربريّة قابليّة للتّعريب لاحتكاكهم بالعرب على حدّ تعبير الدّكتور إبراهيم حركات (حركات، 1965م) أمّا المناطق التّي اتّخذتها زناتة مستقرّا لها ففي النّواحي الشّماليّة والشّرقيّة خاصّة تلمسان (البكري، د.ت) وضواحي تامسنا (الإدريسي، 2002م) إلى حين وصولهم إلى سلا وتادلا وأغمات وفاس وتازا فاتّخذوها مواطنا لهم (بوتشيش، 1997م) ولم تفرّق الجبال الوعرة ولا المسالك الضّيّقة في المنحدرات بين هؤلاء السّكان .

3-القبائل المستقرّة:

المصامدة: على حسب ابن خلدون تنتسب إلى مصمود بن يونس بن بربر (خلدون ع 2000م -1421هـ) يعدّون من أكثر العناصر "البرنسيّة" يتميّزون بكثرة عددهم بالنّسبة لمجموع سكّان المغرب الأقصى، فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم (خلدون ع. 2000م-1421هـ)، يتمركزون بجبل "درن" و"غمارة الرّيف" و"بورغواطة تامسانا" وقد اعتمدوا على حياة الاستقرار، فاتّخذوا المعاقل والحصون، وشيّدوا المباني والقصور وامتهنوا فلاحة الأرض، وتشبّثوا بأراضيهم أشدّ تشبّثا ؛فلم يهجروا المناطق التّي اتّخذوها مستقرا لهم ودافعوا عنها ضدّ محاولات الاستيلاء عليها (محمود، قيام دولة المرابطين، د. ت) والواقع أنّ المرابطين وجدوا صعوبة في إخضاع قبائل المصامدة، ولم يتوغّلوا في جبل درن إلاّ بعد أن اختبروا حالهم وأدركوا نقاط ضعفهم وعرفوا الصّراعات التّي كانت تحدث بينهم (عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980م).

ونستخلص أنّ "المصامدة" شكّلوا الفئة الأكثر قوّة وعددا يتمركزون في الجبال والسّهول رغم خضوعهم للحكم المركزي إلاّ أنّ المرابطين لم يتمكّنوا من إزاحتهم عن مواطنهم الأصليّة وإبعادهم عنها حاصروهم جيّدا وشدّدوا عليهم الخناق لألاّ ينزلوا إلى السّهول في حين أبادوا "مصامد" و"تامسنا"، وحلّوا محلهم (الذّيب، 2009م).

*** أمّا بربر الأندلس**: فيتكوّن هذا الصّنف من السّكان من قبائل "صنهاجة" اللّثام الذّين لبّوا دعوة ملوك الطّوائف لردع الخطر النّصراني؛ فأنزلوا قبائلهم في المدن والثّغور (موسى، 1983م).

وأمّا "المصامدة" و"زناتة" فقد عبروا الأندلس في سنة 515هـ بعد ثورة قرطبة لتهدئة الأمور لماكانت عليه من قبل (سالم ع، 1997م) (الدّقاق، 2003م)، وفي عام 535هـ نزح كثير من البربر نحو العدوة الأخرى لسبب تردّي الأوضاع السّياسيّة والأمنيّة في المغرب فتذمّر الأندلسيّون من هذه الهجرة وانجبس عن ذلك كلام شجّ أواصر العدوتين فقد وصفوهم بأصحاب النّكد، والشّؤم والدّمار عندهم هوان (المراكشي ع، ط1، 2006م)، وإذا هم غضبوا قتلوا أوجرحوا (عبدون، 1955م) ولم يسلم البربر من الهجاء والقدح حتّى في أنسابهم على حدّ قول الشّاعر أبوبكر سهل بن يحي بن سهل اليكي حين حط من قيمتهم:

فِي كُلِّ مَنْ رَبَطَ اللِّثَامَ دَنَاءَةً ... وَلَوْ أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى كِيوَانِ
مَا لفَخْرٍ عِنْدَهُمْ سِوَى أَنْ يَنْقُلُوا ... مِنْ بَطْنِ زَانِيَةٍ لِظَهْرِ حِصَانِ
المُنتَمُونَ لِحمْيَرَ لكِنَّهُمْ ... وَضَعُوا القُرُونَ مَوَاضِعَ التّيجَانِ
لاَ تَطْلُبَنَّ مُرَابِطًا ذَا عِفَّةٍ ... وَاطْلُبْ شُعَاعَ النّارِ فِي الغُدْرَانِ

(سعيد 1955م)

الشّاعر أشبع المرابطين وابلا من التّهم والشّتائم يندى لها الجبين؛ فقد مسّهم في شرفهم وفي هنادمهم الذّي ضاهى قرون الحيوان، ينم عن الازدراء والاحتقار للعنصر المرابطي في عدوة الأندلس، ورغم كل ذلك إلاّ أنّ هذا لم يؤثر على سيرورة الأمور بين الجنسين في العدوتين، ولم يقطع الامتداد في علاقتي التّأثير والتّأثر بين ساكني العدوتين فسرعان ما عرفت انسيابا كبيرا.

ومن القبائل التّي استوطنت العدوة الأخرى نجد: نفزة ومكناسة اللتين اتّخذتا من قرطبة وبلاد الجلالقة موطنا لها، في حين كانت تقيم قبيلتا هوارة ومديونة بشنت بريّة أمّا بطون مصمودة فقد انتشرت في قرطبة والجزيرة الخضراء وماردة فالملاحظ أنّ الهجرة قد مسّت حواضر الأندلس الكبرى، وقد أمدنا "ابن حزم" بأسماء لقبائل بربريّة استقرّت بأنحاء الأندلس من الفتح مثل مصمودة وصنهاجة وهوارة وزناتة (الذّيب 2009م).

1- 1 العرب:

أ-عرب المغرب الأقصى: وهم العنصر الثّاني الذّي شارك البربر في الإقامة في المغرب منذ الفتح الإسلامي حيث ترك الفاتحون من يعلّم السّكان مبادئ الدّين، كما كان منفذا لولوج الهاربين من بطش الخلافة في المشرق (حسن، 1980م)، ومع إشراقة الدّولة المرابطيّة تقاطرت الأسر العربيّة على المغرب طلبا للأمن والاستقرار وتقلّد عدد هائل منهم المناصب الحسّاسة في ميدان القضاء والإدارة مثل "مالك بن وهيب" الذّي كان وزيرا عربيّا أندلسيّا (الذّيب، 2009م)، وقد أسهموا كثيرا في الجهاد واختلطوا بالعرب (الذّيب 2009م).

ب -عرب الأندلس: إنّ «ابن حزم" الذّي عاش قريبا بفترة المرابطين خصّص كتابا كاملا لذكر القبائل العربيّة التّي استقرّت فيه، وأماكن إقامتها، **ومن** هؤلاء العرب نجد بني القليعي بقريّة صالحة قرب مالقة، وبني حمديس والأصبحيون بقرطبة وبنوهذيل في تدمير وبنوزهرة في إشبيليّة ...كما كتب ابن الأغلب في نفس المجال كتاب فرحة الأنفس (الذّيب 2009م).

3-المولّدون: المولّدون هم الجنس الثّالثّ بعد البربر والعرب، وهم السّكان الأصليّون الذّين انحدروا من أصل إسباني واعتنقوا الإسلام، ولدوا من أب مسلم فنشئوا على الدّيانة الإسلاميّة وتعود أصولهم إلى الرّوم والجلالقة، والقشتاليين والأراغونيين ومنهم من كان من اليهود الذّين استقرّوا في الأندلس قبل فتحها (النّوش 1992م).

لوحظ على المولدين قوّة نفوذ وثراء عريض لسبب المهن التّي مارسوها كتربيّة المواشي والزّراعة في الأرياف، وصيد الأسماك وأمّا في المدن فقد اشتغلوا بالتّجارة كما زاولوا حرفا متعدّدة (مجهول، رؤيّة من خلال أشعار أندلسيين وأمثالهم الشّعبيّة 1998) من بين الإمارات التّي كانت إبّان المرابطين ثغر" بني هود" (بوتشيش 1997م) الذّين استوصى بهم خيرا "يوسف بن تاشفين" لابنه "عليّ" كما سنعرف ذلك في أوانه.

***أقليات أخرى:**

أ-الصّقالبة والرّوم : المقصود بهم سكّان البلاد المختلفة من بلغاريا إلى البحر الأدرياني (حوقل،1979م) أطلق عليهم عدّة نعوت تكرّرذكرها في المصادر الأندلسيّة: منها الصّقالبة والفتيان والخلفاء والخُرس والخصيان والمجاييب وهناك من سمّاهم بأرستقراطيّة العبيد

(ميتز، 1957م)عمل هؤلاء على الخدمة في بلاط الملوك والخلفاء وأثرياء الأندلس قبيل المرابطين، وأمّا هؤلاء فقد سمّوهم " بالعلوج" أو "الرّوم" أو "الحشم" واختفت لفظة "الصّقالبة" على حدّ تعبير صاحب الحلل حين يتحدّث عن يوسف قائلا: "...وبعث إلى الأندلس فابتيع له بها جملة من الأعلاج... (مجهول الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة 1979م).

ب-السّودانيون: لقد اشترى يوسف ابن تاشفين عبيدا من السّودان بلغ عددهم نحو ألفي فارس (عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980م) كما جنّد أربعة آلاف جندي في معركة الزّلاّقة (التّلمساني، 1968م) واعتمد ابنه "عليّ" على تقسيط عدد الجند السّودان، وتحمّل نفقات تجهيزه بالمال والسّلاح صدّا للمدّ الإسباني في الأندلس، فكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا" (المراكشي ا. 1990م).

ج-أهل الذّمّة: وهم اليهود والنّصارى (بوتشيش، 1997م). أمّا النّصارى فقد كانت أقلّيات ضئيلة جدّا مقارنة بالفئات المشكّلة للمجتمع المغربي والتّي تدين بالنّصرانيّة، وتعاظم عددهم في أيام تاشفين ليصل عدد ما اصطحبه من المماليك النّصرانيّة زهاء أربعة آلاف مسيحي (مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة، 1979م)، وفي سنة 519هـ تمّ نفي طائفة المعاهدين النّصارى من أهل الأندلس أو ما يُعرف باسم المستعربين " les Mozarabe" أو الذّين أرغموا على التّغريب وإجلائهم عن أوطانهم فنفذ العهد إلى جميع بلاد الأندلس بإجلاء المعاهدين إلى العدوة فاتّخذوا من "مراكش" و "سلا" و"مكناسة" مستقرّا لهم" (كربخال 1984م) وأخذ العدد يتنامى مع مرور الوقت لكثرة استخدامهم في الجيش حتّى وصل عددهم في عاصمة الدّولة لوحدها في أواخر أيّام المرابطين أربعة آلاف (مجهول الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة 1979م).

تقلّد المستعربون في الأندلس مقاليد ساميّة، قبيل المرابطين، فمنهم من شغل وظائف حكوميّة، ومنهم من امتهن المهن على غرار باقي الفئات الاجتماعيّة وقد استوطنوا غرناطة وإشبيليّة وبلنسيّة والبيرة وبطليوس وطركونة ومالقة فضلا عن استقرار بعضهم بالبوادي (مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة 1979م)، وقد حرص المرابطون على

حفظ حقوق النّصارى والضّرب على أيدي كل من حاول المسّ بهم خاصّة في عهد علي بن يوسف (بلغيث، 2006م).

لقد شكّل اليهود فئة هامة من المجتمع باعتباره المورد الاقتصادي للمرابطين سواء عن طريق الجزيات والضّرائب، لأنّ باعهم كان طويلا في التّجارة منذ القدم فتعايشوا وتفاعلوا مع المسلمين بعدما فرضت الوحدة الجغرافيّة وظروف الحياة اليوميّة خصوصا في المعاملات التّجاريّة (الإدريسي، 2002م) لقد تنوّعت الوظائف اليهوديّة في عهد المرابطين حيث تولّوا جباية الضّرائب والكتابة ومهنا أخرى كالطّبّ (عذارى البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980م) والهندسة، كما امتهنوا حرفا متنوّعة كصناعة القناديل وزخرفة المعادن (حسن 1980م) في حين اختصّ يهود سجلماسة بالبناء (سعيد، 1955م) إنّ التّعايش مع المسلمين كان سلميّا فدور اليهود كانت أحيانا ملاصقة للمساجد (الونشريسي-1991م) ولكنّ هذا لم ينف من وقوع مناوشات بينهم سرعان ما خبت نيرانها، مثلما ثارت العامّة على اليهود في قرطبة في عام 529هـ، بسبب وجود جثّة من المسلمين في حيّ من أحيائهم ؛فاقتحموا ديارهم وانتهبوا أموالهم، وقتلوا عددا منهم (عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980م).

نتيجة أحقاد دفينة كانت في نفوس النّاس، وطفحت بالحادثة فقد احتكروا التّجارة ومارسوا شتّى ألوان الخبث في منافسات غير شرعيّة وصلت حدّ القتل، ولقد كانت غرناطة تعجّ باليهود تغلغلوا في السّياسة منذ ملوك الطّوائف؛ فتذمّرت الرّعيّة المسلمة من ذلك فثارت ثائرتها، فاتّخذ المرابطون ضدّهم إجراءات تقيّد من تحرّكاتهم وتجعلهم تحت مراقبة الدّولة باستمرار، وفرض عليهم يوسف عام 464هـ ضرائب (حسن 1980م) لقد أخذهم المرابطون بشدّة، بدل النّفوذ والشّرف اللذين تمتّعا بهما إبّان فترة ملوك الطّوائف (مورينو، د ت).

كما عرف المجتمع المرابطي تنوّعا في الطّبقات نتيجة تغيّر الظّروف السّياسيّة والاقتصاديّة التّي مرّت بها عدوتي المغرب والأندلس.

وقد قسّمت فترة المرابطين إلى جيلين: أمّا الأوّل فكان محافظا على بداوته وبساطته في العيش، محافظا على تراثه الصّحراوي إلى جانب خشونته وبداوته وتقشّفه في الملبس والمأكل واقتصاره على نمط البساطة، فلبسوا الصّوف، وأكلوا الشّعير مع لبن الإبل ولحومها (زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، 1843م)

غيرأنّ هذا التّقشّف في المأكل والملبس سرعان ما ولّى في عهد "علي بن تاشفين "إذ وسمت بعهد الحضارة والتّرف فأصبح التّألّق في اللّباس والمأكل (محمود، قيام دولة المرابطين 1959م)، وهذا ماورد في كتاب "الطّبيخ في المغرب والأندلس" بألوان مختلفة من المأكولات المتنوّعة والشّهيّة التّي جبل على أكلها الأمراء وذوو النّعمة (مجهول، الطّبيخ في المغرب والأندلس 1962م) وتفنّن الأمراء في الملبس مضاهين العبّاسيّين في اتّخاذ لون السّواد في ألبستهم التّي شملت اللّثم والغفائر القرمزيّة والعمائم ذات الذّوابات (عازي 1959م) وحلموا السّيوف المحلاة؛ فأصبح نوع اللثام يرمز إلى وضع اجتماعي متميّز (مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة 1979م) كما اعتنوا بالعمارة والتّشييد عناية فائقة بالقصور والمنيات والمنيات ج منيّة وهي بيوت ريفيّة تقوم وسط جنان كثيرة عامرة (الخالق 1990م)، حتى وصلوا في أواخر العهد إلى مرحلة تحصيل ثمرات الملك على حدّ تعبيرابن خلدون :" ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور....ويغرسون الرّياض ويستمتعون بأحوال الدّنيا (خلدون ع، 2005م)، فامتلأت القصور بالعبيد والخدم والإماء والجواري من الإفرنج والسّودان (عذارى البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب 1980م) وقد أغدق أمراء الثّغور عليهم الهدايا والجواهر النّفيسة والتّحف والذّخائر واليواقيت ورفيع الدّنانير (مجهول الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة 1979م)، وكان ثراء الأمراء الفاحش محطّ أنظار الشّعراء يلتمسون العطايا، والنّول خاصّة من عرفوا بجزل العطاء وبذخ البذل وبسط الأيدي (الزّقاق، د ت) وانحصرت القيادة السّياسيّة في عصر المرابطين "على قبيلة لمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم ...فكسبوا الأموال وملكوا رقاب الرّجال، وكثروا بكل مكان وساعدهم الوقت والزّمان وكثرت جموعهم وتوفّرت عساكرهم (مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشيّة، 1979م)".

اندمج هؤلاء الأمراء والسّادة في الحياة الاجتماعيّة في الأندلس، وتشرّبوا متعة الحياة وبهجتها ومسراتها فعاش الجيل الثّاني على حدّ تعبير الدّكتور "حسن أحمد محمود" حياة لا تختلف عن الحياة التّي كان ملوك الطّوائف يحيونها، وأسهم بعض الأمراء في مجالسّ الغناء واللّهو (محمود، قيام دولة المرابطين، 1959م)، واتّخذ الأمراء المرابطون وقوادهم من القصور الحسان منزلا لهم بعد تفنّن المهندسين في بنائها وزخرفتها ؛وهذا دليل قاطع على الثّراء والتّرف في عهدهم (الذّيب، 2009م) في حين أحصى-المقري عدد الدّور في القصر الكبير

بقرطبة لوحده أيام لمتونة والموحدين بأربعمائة دار ونيفا وثلاثين، وبلغ عدد ديار أهل الدّولة إذ ذاك ستّة آلاف وثلاثمائة دار (التّلمساني، 1968م).

ويبدو أنّ المناصب الكبرى كانت حكرا على أفراد البيت الحاكم من قبيلة لمتونة كي يضمن الحاكم ولاء هؤلاء الحكّام والوزراء، على حدّ تعبير ابن خلدون: في المرحلة التّي يشب فيها عود الدّولة ويشرع الأمراء في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضّبط ومباهاة الدّول وتنفيذ الأحكام، فالكاتب هو المعين لهم في هذه المرحلة، عليه فيكون أرباب الأقلام في هذه المرحلة أوسع جاها، وأعلا رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السّلطان مجلسا (خلدون ع 2005م).

لقد تجلّت حاجة الدّولة الماسّة للكتابة في ضرورة توجيه الأمر للرّعيّة وإرسال الرّسائل للملوك والسّهر على قوائم المستحقين للجزيّة والخراج، ومختلف الجبايات والمواريث وبيت المال، وما يتطلب ذلك من نقل للأخبار سواء في الحرب أم في السّلم عبر المراسلات وكذا ضبط مقدار الغنائم وتوزيعها، أمّا الولاة، فأتقنوا بناء القصور وتفننوا في المأكل والملبس، كما اتّخذوا الخدم والحشم والعبيد (المراكشي.ا. 2012م) وهذا ما يوحي بتأثرهم الكبير بالمدنيّة الحديثة للمرابطين بالأندلس (الصّنهاجي، 2011م).

لقد احتلّ الفقهاء في العهد المرابطي مكانتهم عاليّة ضمن طبقة خاصّة لأنّ الدّولة قامت على أسس دينيّة ودعوى إصلاحيّة، جعلت للفكر الدّيني وأهله مرتبة راقيّة ويتّضح ذلك جليّا منذ قيام دولتهم بعد تحالف فقهاء المالكيّة مع الأمراء المرابطين فاعتبروا بمثابة المنظرين الأساسيين لتوجّهات الدّولة (أعمال النّدوة الدّوليّة 1999م) وهذا ما أشار إليه صاحب المعجب في قوله : "ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدّته فعظم أمر الفقهاء ...وانصرفت وجوه النّاس إليهم فكثرت أموالهم، واتعست مكاسبهم (المراكشي.ع، ط1، 2006م) لقد تنوّعت بين شرائح المجتمع فمنهم التّجّار والصّيارفة وأصحاب الحرف والمهن الحرّة كالأطباء والمهندسين وأصحاب الوظائف المتوسّطة، وحدّدها ابن باجة: "هي مجموعة النّاس الذّين يتصنعون ويطمسون حقيقتهم بارتداء الملابس الأنيقة فوق الملابس الباليّة للتقرّب من الكبراء، علّهم يصلون إلى مكانة الطّبقة الخاصّة (باجة، 1987م)، اعتبرها أسلم الطّبقات:" لأنّها لا تهتضم من دعة ولا ترمق من رفعة " (باجة، 1987م).

5. خاتمة: من أهمّ الملاحظات نجد:

1-ومهما تنوّعت الأجناس البشريّة واختلفت دياناتها ونحلها فلقد شكّلت عنصرا مرابطيا مميّزا استطاع التّأقلم مع مختلف الفئات.

2-تشكّل المجتمع المرابطي كأيّ مجتمع سابق أوّلا حق طبقة ثريّة وتمثّل الطّبقة الحاكمة التّي لم تخرج في تركيبها عن قبيلة لمتونة، وطبقات التّجارّ التّي تقلّ بقليل عن الأولى ثمّ العامّة التّي بدورها شكّلت فئات مختلفة من عامّة الشّعب مورس عليها الضّغط أحيانا بسبب الضّرائب ويسُر حالها في أحيان أخرى.

3-لم تثن المسالك الوعرة ولا الأجناس المختلفة من عرب وبربر وصقالبة وأتراك وأهل الذّمّة من التّحام الأجناس تحت لواء المرابطين.

4-تصاهر مختلف الأجناس فيما بينها تولّد عنها تنوّع في اللّغة والدّين والعادات والتّقاليد.

5-لمع نجم اللمتونيين، فكانوا قوّادا ومسؤولين كبار في الدّولة ولم يخرج زمام الحكم المرابطي من مناصب عليا وجهاد عنهم.

6-استطاع المرابطون تعلم اللغة العربيّة وإتقانها والتّواصل مع الأندلسيين رغم اللهجات البربريّة المختلفة.

7-نلاحظ الأبيات التّي أدرجناها عن شاعر أشبع المرابطين وابلا من الشّتائم توحي بنزعة التّعصّب والتّعّالي على العنصر المرابطي المعروف بالحياة البسيطة والبداوة في طريقة العيش.

حدثت مناوشات عدّة بين الأجناس المختلفة لكنّها لم تحتدم لتصل للفرقة بل بقيت كتلة واحدة إلى أن فرّقتها يد الموحّدين.